مركز براثا للدراسات والبحوث
Baratha Center for Studies and Research

مقالات

الأبعاد الجيوستراتيجيّة لفتوى الجهاد الكفائيّ للمرجعيّة الدينيّة

أ. أحمد الخالصي

www.barathacenter.com

2024

الأبعاد الجيوستراتيجيّة لفتوى الجهاد الكفائيّ للمرجعيّة الدينيّة

أ. أحمد الخالصي

◆ تاريخ الطبعة:
2024 م- 1446هـ

◆ مكان الطبعة:
بيروت - بغداد

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

الأبعاد الجيوستراتيجيّة لفتوى الجهاد الكفائيّ للمرجعيّة الدينيّة

أ. أحمد الخالصي[1]

ملخّص

ساهمَت فتوى الجهاد الكفائيّ في معالجة ثغرات الجغرافية السياسيّة العراقيّة، التي عانت بعد 2003 بفعل المحتلّ الأميركيّ، والمال والإعلام الخليجيَّيْن، مِن تشرذُم في سياقها السياسيّ؛ ممّا ساهم في حدوث الكثير من الانشقاقات في النسيج الاجتماعيّ العراقيّ. وامتدّ تأثير الفتوى جيوستراتيجيًّا، عبر دورها المؤسِّس في طرد داعش كتهديد دوليّ، وكذلك ولادة مؤسّسة «الحشد الشعبيّ» كقوّة دفاع شعبيّ لها حضور فارق في الجغرافية السياسيّة الدوليّة، والتي أجهضَت أطماع لاعبين إقليميّين داخل العراق، كما عزَّزَت الأمن الإقليميّ، عبر الحماية طويلة المدى للنظام السياسيّ داخل العراق.

الكلمات المفتاحية:
فتوى الجهاد الكفائيّ، المرجعيّة الدينيّة، العراق، الجيوستراتيجيّة، الحشد الشعبيّ، داعش.

1 - باحث وكاتب في الشأن السياسيّ.

مقدّمة

ساهمت فتوى الجهاد الكفائيّ في معالجة الجغرافية السياسيّة العراقيّة، التي عانت بعـد 2003، بفعل المحتلّ الأمـيركيّ، والمال والإعـلام الخليجيَّين، من انفصال شبه تامّ في سياقها السياسيّ؛ ممّا ساهم في حدوث الكثير من الانشقاقات في النسـيج الاجتماعيّ للدولة العراقيّة. وامتدّ تأثير الفتوى جيوسـتراتيجيًّا، عبر مساهمتها في طرد داعش كتنظيم دوليّ، وكذلك ولادة «الحشد الشعبيّ» كمؤسّسة لها حضور قويّ في الخارطة السياسيّة الدوليّة، نتيجة المواقف التي أبداها، ومن ثمّ تقويض المصالح الجيوسـتراتيجيّة لكثير من الدول داخـل العراق، وكذلك تعزيز موقـف الدولة الإقليميّ، عـبر الحماية الآنيّة واللاحقة لهـا، بل وإمكانيّة التمدُّد الجيوستراتيجيّ في حال قرّر العراق ذلك مستقبلاً.

تحضر الجغرافية السياسـيّة اليوم بقوّة في ميدان علم السياسـة، سـواء كأفـكار مجـرّدة، أو عبر فعاليتهـا الواقعيّـة في إعادة تشـكيل الظواهر في الأبعاد المكانيّة والسياسـيّة، عبر كشـف مكامن التأثير بينهـما، وتحليلها. تفـترض هذه الدراسـة بأنّ المجتمـع العراقيّ كان يعاني من التشـظّي على أُسُـس طائفيّـة وقوميّة، وأنّ الفتوى سـاهمت في إعادة ترميـم هذه الحالة.

وقد امتـدّ تأثير الفتوى إلى النطاقَين الإقليميّ والدوليّ، عبر المسـاهمة في التصدّي للإسـتراتيجيّات الأميركيّة والصهيونيّة، والفواعل الإقليميّة التابعة لهما. قُسِّمَت الدراسة لأربعة محاور، يتناول المحور الأوّل ماهيّة الجغرافية السياسـيّة، فيما اختـصّ المحور الثـاني بالجغرافية السياسـيّة للعراق قبل الفتوى، في حين وضّح المحور الثالث حالة الجغرافية السياسيّة للعراق بعد الفتوى، أمّا المحور الرابـع فتعلّق بالأبعاد الجيوسـتراتيجيّة لفتوى الجهاد الكفائيّ، على المستويَين الإقليميّ والدوليّ.

ماهيّة الجغرافية السياسيّة

الجغرافية السياسيّة فرع قديم من فروع علم الجغرافية، كتب فيها أرسطو وأفلاطون[1]، فتناولا علاقة قـوّة الدولة بما تمتلكه من ثروات طبيعيّة وحجم السـكان، وكيفيّة توفيقها بين الاثنَين. وشأنها شأن غيرها من العلوم، تعدَّدَت تعاريفها واختلفَت، إلّا أنّنا سنورد في هذه الدراسة ما يؤشّر فقط على العناصر التي سـنتناولها بالبحـث، فـ(آيسـايا بومـان - Isaiah Bowman)[2] يعرّفها

1 - محمّـد عبد الغني سـعودي، الجغرافية السياسـيّة المعاصرة دراسـة الجغرافية والعلاقات السياسيّة الدوليّة، ص 1.

2 - رائد الجغرافيّين الأميركيّين، والذي عمل مديرًا للجمعيّة الجغرافيّة الأمريكيّة في الفترة من (1910-1930م).

بـ»العلم الذي يساعد على تحديد الأسباب الجغرافيّة المؤثّرة في السلوك السياسيّ للإنسان»[1]، في حين ذهب (نورمن باوندز- Norman Pounds)[2] إلى تعريف العلم من ناحية السياق الوظيفيّ، فقال إنّ الجغرافية السياسيّة هي: «العلم الذي يهتمّ بالدولة أو الإقليم المنظَّم تنظيمًا سياسيًّا، من حيث الوظيفة والموارد والمساحة والعوامل أو أسباب تكوينها...»[3]، فيما ركّز (ألكسندر دوفاي- Alexandre Dufay)[4] في تعريفه على تأثير القوى الفاعلة ضمن الموقع الجغرافيّ، في الصراعات الناشئة، فعرَّف العلم بأنّه: «التفاعلات بين المساحة الجغرافيّة وحالات التعارض بين القوى الناشئة فيها. فيترجم تأثير الموقع بالقيود التي يفرضها، أو الفرص التي يتيحها أمام المزاحمات السلطويّة»[5].

الجغرافية السياسيّة للعراق قبل الفتوى

بعد سقوط حكم البعث عام 2003م، مرَّ العراق بكثير من المطبّات

1 - عليّ أحمد هارون، أُسُس الجغرافية السياسيّة، ص 28.
2 - جغرافيّ ومؤرّخ إنجليزيّ، له مؤلّفات عدّة حول تاريخ أوروبّا وجغرافيّتها.
3 - عليّ أحمد هارون، مصدر سابق، ص 29.
4 - أستاذ الجيوسياسة في الجامعات والمعاهد الفرنسيّة المختصّة.
5 - ألكسندر دوفاي، الجغرافيا السياسيّة، ص 6.

السياسيّة والأمنيّة معًا؛ بسبب الاحتلال الأميركيّ، وتغذيته لحالة عدم الاستقرار، ومحاولاته المستمرّة في تثبيت حالة اللادولة، فضلاً عن قيامه بترسيخ التقسيم الطائفيّ والقوميّ في روحيّة المجتمع العراقيّ وثقافته، وصولاً إلى مسخ أيّ مشتركات وطنيّة جامعة، وهذا ما طبّقه في بداية غزوه؛ «لإبقاء الدولة العراقيّة والمجتمع في حاجة للوجود العسكريّ الأجنبيّ»[1]، وهو النموذج الذي طبّقه إبان تدخّلاته السابقة، مثل تجربة السلفادور، أو ما يُطلَق عليه «ألاعيب نيغروبونتي»، والتي كشفَت وثائق أنّها تضمّنَت تأسيس فرق الموت للتهييج الطائفيّ، وصناعة الفوضى في نيكارغوا والهندوراس. على سبيل المثال، هناك أدلّة قويّة على أنّه في الفترة من 1981 إلى 1985، استخدم (جون نيغروبونتي - John Negroponte)[2] دوره كسفير للولايات المتّحدة في هندوراس، للتسترُّ على [الجرائم] التي ارتكبَتها فرقة موت برعاية الجيش، مسؤولة عن قتل ما يقرب من 200 من معارِضي التعاون الهندوراسيّ. مع الحرب السرّيّة التي رعَتها إدارة ريغان ضدّ الحكومة الساندينيّة في

1 - أحمد فاضل جاسم، عامر هاشم عواد، الدور الأمريكيّ وتأثيره في معادلة الأمن الوطنيّ في مرحلة ما بعد الانسحاب العسكريّ، ص 8.

2 - دبلوماسيّ أميركيّ، شغل مناصب عدّة مهمّة، كان من ضمنها سفيراً لأميركا في العراق، من حزيران 2004 إلى أبريل 2005.

نيكاراغوا[1]. هذه الشـواهد وغيرها، مضافًا للـدور الفاعل للمال الخليجيّ والنفوذ التركيّ، سـاهمَت في تعزيز حالة الانقسام المجتمعيّ بالعراق. على إثر ذلك، وُلِد واقعٌ مكانيّ شاذّ عن حيّزه الجغرافيّ، تمثَّل بما يمكن أن نسمّيه بـ»الأقلمـة الطائفيّـة»؛ أي أن تكون مدينـة ما مقصورة عـلى تواجُد مذهبيّ معيَّن. وفي سـبيل ذلك، يؤكّد (حسـين حمزة بندقجي)[2] بأنّه: «إذا افتقرَت الدولة إلى مبدأ البقاء، أو إلى القوى الموحَّدة، فإنّها -بلا شـكّ- يتهدَّد أمنها وسـلامتها بظهور قوّة جديدة، أو عدد من القوى، تُعرَف باسم القوى الطاردة أو المفكّكة»[3].

في هذا الوقت، تُظهِر البيانات الصـادرة عن مرجعيّة النجف، أنّها كانت تدرك حقيقةَ الغايات الأَميركيّة في العراق، وعملها المسـتمرّ في تفتيت البُنية الروحيّة والنسيج الاجتماعيّ للشعب العراقيّ. لذلك، كان موقف المرجعيّة

1 - John Negroponte, Latin America's Real "Mr. Danger", Arises in a New Avatar, coh, (2007_1_11) Date of visit (202423-4-) https://coha.org/john-negroponte-latin-america%E299%80%s-real-%E29%80%Cmr-danger%E29%80%D-arises-in-a-new-avatar/(بتصرّف)

2 - مؤلّف وأستاذ سعوديّ، له مؤلّفات عدّة في الجغرافية.

3 - حسـين حمزة بندقجي، الدولة: دراسـة تحليليّة في مبادئ الجغرافية السياسيّة، ص 134.

مــن الاحتلال واضحًا. هذا مــا تؤكّده (كارولين مرجي صايــغ - Caroleen Marji Sayej)[1]: «أوضح السيستانيّ بأنّه قلق للغاية بشأن الغايات الأميركيّة. وقــد أجاب بـِ لا في كلّ مرّة يُســأَل بها مــا إذا كان يتواصل مــع إدارة بوش. وفي الحقيقــة، لم يُشِر مطلقًا للولايات المتّحدة بالاســم، بل أطلق عليها إمّا «ســلطة الاحتلال» أو «ســلطات الاحتلال»»[2]. وفي ســبيل ذلك، واجهَت المرجعيّة الدينيّة هذه التحدّيات عبر تبنّي الرؤية الوطنيّة، والتأكيد المســتمرّ للمشتركات ونبذ الخلافات. وفي هذا الصدد، يقول (فارس فاضل عطيوي): «مَن يتابع خطابات المرجعيّة الدينيّة العليا في العراق، منذ سقوط نظام بغداد عــام 2003م، وإلى يومنا هــذا، يجدها تؤكّد، مــرارًا وتكــرارًا، على الوحدة الوطنيّة، ورصّ الصفوف، والوقوف صفًّا واحدًا كالبُنيان المرصوص...»[3]. وتحــرّى خطاب المرجعيّــة تمثيل جميع العراقيّــين، دون اقتصار الأمر على المذهب الجعفريّ فقــط، ويؤكّد هذا المنحى أحــدُ الباحثين، حيث يقول: «لم يسعَ [السيّد] السيستانيّ لاقتصار تدخُّلاته على الطائفة الشيعيّة فقط، بل

1 - باحثة أمريكيّة وأستاذة في العلوم السياسيّة.

2 - كارولين مرجي صايغ، المرجعيّة الدينيّة: الموقف الوطنيّ في العراق بعد 2003، ص 77.

3 - فارس فضيل عطيوي، فتوى السيّد السيستانيّ (دام ظلّه) بالجهاد الكفائيّ وأثرها في درء الفتنة الطائفيّة والحفاظ على الوحدة الوطنيّة، ص 138.

شملَت بياناته في أحداث كثيرة، التنديد بانتهاك حقوق المسلمين والطوائف الأخرى، مع الدعوة المستمرّة للتسامح والتعايش...»[1]؛ ما أدّى، في النهاية، إلى أن يكـون لمرجعيّـة النجف الدور الرئيس في الحفـاظ على العراق أمام التحدّيات المختلفة التي فرضها الواقع الجديد، سواء كانت أمنيّة أو سياسيّة أو اجتماعيّة.

يمكننا أن نلخّص حالة الجغرافية السياسيّة للعراق قبل الفتوى، مع بعض أسبابها، في النقاط الآتية:

1. عانى المجتمع العراقيّ من تشظٍّ وتقسيم إثنيَّين وقوميَّين، ألقيا بظلالهما على الجغرافية السياسـيّة للبلد؛ نتيجة إسـتراتيجيّة الاحتلال الأميركيّ، التي صبَّت في هذا الجانب، من تقسـيم المقسّـم وتجزئة المجزّأ؛ الشيعة، الكرد والسـنّة، والشـيعة إلى انتماءات معيّنـة. وهذا المثال -تباعًـا لتوضيح الذي قلناه سـالفًا- أدّى -بطبيعة الحال- إلى إشـغال الطبقة السياسيّة، ومِن خلفها الجماهير، في صراعات ثانويّة، وصلَت في بعض الحالات للعداوة.

---

1 - عماد الصادق، السيسـتانيّ المرجعيّة التي أنقذَت شـعبًا، (2023-8-3)، تاريخ الاطّلاع (2024-4-24)، على الرابط الآتي:

https://www.csrgulf.com/202303/08//%D8%B1%D985%%D8%B2%D98%A%D8%A9-%D8%A7%D984%%D8%B3%D98%A%D8%B3%D8%AA%D8%A7%D986%%D98%A/ (بتصرّف)

2. انتقلَت حالة التشظّي السـياسيّ تلك إلى الأوساط الاجتماعيّة، وساهم في تضخيمها التغذية المسـتمرّة للخطاب التحريضيّ، والذي تكفَّل به الإعلام الغربيّ والعـربيّ (الخليجيّ على وجه الخصوص)؛ مـمّا ولَّد بيئة خصبة للفتن الطائفيّة، والتي تحوّلَت إلى صراعات دمويّـة؛ الأمر الذي دفع البلد فاتورته في شكل سنوات كثيرة من التراجع والتخلّف. وقد حدث هذا الانتقال لأسباب عدّة، بعضه له جذور تاريخيّة، وبعضٌ آخر مستحدثة سياسيًّا. وإذا أردنا تحليل أحدها، ألا وهو تأثير العامل الإعلاميّ، نجده يعود إلى الجهل بكيفيّة التعاطي مع طرحه؛ أي (الإعلام)؛ ممّا أدّى إلى ابتلاع الرواية الإعلاميّة، سواء على مستوى إخراجها، أو عبر استخدام المصطلحات التي تذكيّ من حالة الطائفيّة والانقسام.

4. دفعَت الأوضاع التي عاشـها البلد إلى خروج المرجعيّة الدينيّة العليا من الإطار التقليديّ المتحفّظ عن المشاركة المباشرة، الذي كانت تتّخذه في المجال السياسيّ، عبر إصرارها على أن تكون الإرادة العراقيّة، منذ البدء، هي الفيصل في تحديد معالم النظام الجديد. يظهر ذلك -على سبيل المثال- في ردّها على سؤال وُجِّه لها بخصوص تشكيل الاحتلال الأميركيّ مجلسًا لكتابة الدسـتور العراقيّ القادم، فقال، حسـب نصّ الفتوى: "إنّ تلك السلطات لا تتمتَّـع بأيّة صلاحية في تعيين أعضاء مجلس كتابة الدسـتور، كما لا ضمان أن يضع هذا المجلس دستورًا يطابق المصالح العليا للشعب العراقيّ، ويعبرّ عن هويّته الوطنيّة، التي من ركائزها الأساس الدين الإسلاميّ الحنيف، والقيم

الاجتماعيّة النبيلة. فالمشروع المذكور غير مقبول من أساسه، ولا بدّ، أوّلًا، من إجراء انتخابات عامّة؛ لكي يختار كلّ عراقيّ مؤهَّل للانتخاب مَن يمثّله في مجلس تأسيسيّ لكتابة الدستور، ثمّ يجرى التصويت العامّ على الدستور الذي يقرّه هذا المجلس..."[1].

الجغرافية السياسيّة للعراق بعد الفتوى

شكّلَت فتوى الجهاد الكفائيّ لحظة تاريخيّة مفصليّة، أثّرَت في الجغرافية السياسيّة العراقيّة بقدر فعالية مقام المرجعيّة، في أبعادها الروحيّة والدينيّة والوطنيّة، على مستوى المجتمع العراقيّ، واتّسمَت الفتوى بعدد من السمات الهامّة، التي منحَتها بُعدًا وطنيًّا:

1. المخاطَب بنصّ الفتوى كان العراقيّين باختلاف طوائفهم: "هي مسؤوليّة الجميع، ولا يختصّ بطائفةٍ دون أخرى، أو بطرفٍ دون آخر"[2]؛

1 - موقع مكتب سماحة السيّد السيستانيّ، استفتاء حول مشروع كتابة الدستور العراقيّ، (2003-6-25)، تاريخ الاطّلاع (2024-4-25)، على الرابط الآتي:
https://www.sistani.org/arabic/archive/273/

2 -موقع مكتب سماحة السيّد السيستانيّ، خطبة إعلان الجهاد الكفائيّ، (2014-6-13)، تاريخ الاطّلاع (2024-5-2)، على الرابط الآتي:
https://www.sistani.org/arabic/archive/24918/

ممّا يعني أنّها دعوة إلى وحدة النسيج الاجتماعيّ، كخطوة أولى، في سبيل معالجة حالة التشظّي؛ من أجل مواجهة هذا التحدّي وغيره.

2. سبق التعريف بأنّ الجغرافية السياسيّة تتكوّن من شقَّين: أوّلهما مكانيّ، بما يحمله من عوامل طبيعيّة وسكّانيّة و...، وثانيهما سياسيّ، كفعل وأثر ومؤثّر مع الأوّل. ولكي يكتمل التأثير الكلّيّ للفتوى على الجغرافية السياسيّة، خاطبَت الطبقة السياسيّة: "ودعا الكربلائيّ القيادات السياسيّة إلى ترك الاختلاف والتناحر، ولا سيّما خلال هذه الفترة العصيبة، وحثَّهم على توحيد مواقفهم..."[1]. وهنا، نلاحظُ التفاتَ المرجعيّة إلى البُعدَين (السكّاني والسياسيّ)، مع الدعوة لتفعيلهما معًا في مجابهة الخطر، ومن ثمّ العمل ضمن هذا المسار الوحدويّ، لحين الوصول إلى القناعة الذاتيّة على المستوى الشعبيّ، بضرورة الوحدة على المستويَين السياسيّ والاجتماعيّ.

3. يتّضح جليًّا، من النظر إلى المناطق التي احتلّها داعش، بأنّها ذاتها كانت تشكّل إشكاليّة في الجغرافية السياسيّة بعد 2003، وكان لا بدّ من التعامل معها بمنطق وإستراتيجيّة مغايرة، ولا يوجد أفضل من المنطق الأبويّ والاحتوائيّ للمرجعيّة الدينيّة، خصوصًا أنّ البعث سابقًا، قام بإستراتيجيّة سكانيّة خطيرة،

1 - موقع مكتب سماحة السيّد السيستانيّ، مصدر سابق.

تمثّلَت بإيجاد مناطق وجود لعناصر موالية له في هذه المدن؛ من أجل إخماد أيّ انتفاضــة يمكن أن تحدث حينها، ولتكون -أيضًا- بؤرة تمرُّد ومقاومة لأيّ تشــكيل محتمَل لنظام سياسيّ يأتي بعده. يقول أحد الباحثين: "... والهدف الثاني تخوُّف صدّام حسين من انتفاضة المناطق السنّيّة عليه، ولإيجاد مناطق تأوي تجمّعات أتباعه ومناصريه؛ لمقاومة تشكيل أيّ حكومة بعده، وتحويل الدولة إلى مناطق مدمّرة"[1]. وهذا ما فرض التعامل معها بمنطق وإستراتيجيّة مختلفَين، وقد كان من أبرز سمات تعامُل المرجعيّة هو المنطق الأبويّ.

4. وُلِد "الحشــد الشــعبيّ" من الفتوى المباركــة، وكان أغلب عناصره من مناطق الوســط والجنوب، وســيكون لهذا الأمر دلالة مهمّة وأساسيّة تساهم، هي الأُخرى، في إعــادة هيكلة الجغرافية السياســيّة العراقيّة، عبر كسر القيود التي رسمها الاحتلال، وغذّاها الإعلام والمال الخليجيَّين، بين المدن العراقيّة. فقبل الفتوى، كان هناك شــبه المنــع (الواقعيّ) من تنقُّل الســكّان إلى مناطق ذات صبغة مذهبيّة مخالفة، وإن كان الأمر أخفّ وطأة في المدن ذات التوازن المذهبيّ؛ لذلك، كان لهذه الخصوصيّة المكانيّة لعناصر "الحشد الشعبيّ" أثرٌ بالغ في تنمية الشعور بوحدة الأرض والوطن، وأعاد التوحيد الفعليّ للخريطة العراقيّة. يقول (عليّ حيدر) بأنّه: "يمكن القول إنّ فتوى الجهاد الكفائيّ أسَّسَت

1 - محمّد كشيش خشان، الحشد الشعبيّ - دراسة في الجيوبوليتك، ص 485.

لواقع جديد، تمثَّل في تحشيد المجتمع ضدّ عدوٍّ مشترك واحد... وكان مقدار الاستجابة السريعة للفتوى بمثابة إعلان وحدة وطنيّة..."[1].

5. اشتغلَت الفتوى المباركة في مديات إستراتيجيّة أوسع، تمثَّلَت في تقوية الدولة في البُعدَين الاجتماعيّ والأمنيّ، تمثَّل الأوّل في ما قلناه سالفًا عن النسيج الاجتماعيّ، فيما كان البُعد الثاني متمثّلاً بتقوية المؤسّسة الأمنيّة، التي تعرّضَت بفعل المحتلّ الأميركيّ، لتغييبٍ وفصلٍ عن عقيدتها الدينيّة والعسكريّة؛ ممّا جعلها ضعيفة تجاه معظم التحدّيات الأمنيّة. كذلك عزَّزَت الفتوى المنظومة الأمنيّة بجهازٍ له القدرة على تشكيل الإضافة النوعيّة، وترجيح الكفّة في أيّة معركة (خصوصًا المعارك مع التنظيمات الإرهابيّة غير النظاميّة)، فقد تميَّز "الحشد الشعبيّ" بأنّه تشكيل عَقَديّ يستمدّ قوّته من تاريخٍ روحيّ وجهاديّ حافل، متمثِّل بأهل البيت (ع)، وهذا ما عزَّز من قدرة الدولة في تخطّي التحدّيات الداخليّة والضغوطات الخارجيّة (مثل منع التسليح، والحصار الاقتصاديّ).

الأبعاد الجيوستراتيجيّة لفتوى الجهاد الكفائيّ

لم يقتصر تأثير الفتوى المباركة على الجغرافية السياسيّة العراقيّة، بل

1 - حيدر حسين عليّ، الحشد الشعبيّ - رؤية في الدور المستقبليّ، ص 4.

شملَت أبعادًا أُخرى، منها المحيط الإقليميّ، وكذلك النطاق الدوليّ، فحينما نتكلّم وفق المنطق الجغرافيّ السياسيّ في الإطارَين الإقليميّ والدوليّ، فنحن نتحدّث عن الجيوستراتيجية. يشكّل الموقع الجغرافيّ للعراق، والذي يتوسّط الشرق الأوسط، أهمّيّة كبرى في السياسة الدوليّة، «وخاصّة العراق، الذي يقع في قلب قوس الأزمات؛ لِما يشكّله من مصلحة حيويّة للقوى العالميّة والإقليميّة»[1]، مضافًا إلى الموارد الطبيعيّة الهائلة التي يمتلكها.

هذه المنطقة بالذات، تشكّل محورًا جوهريًّا في إستراتيجيّات الدول الكبرى، وفي مقدّمتها الولايات المتّحدة الأميركيّة. فمثلاً، المحافظة على تدفُّق النفط المنتَج من المنطقة، يقتضي تأمين ممرّات النقل، والتي معظمها مائيّ، كذلك الحفاظ على أمن الكيان المؤقّت، يُلزِم أميركا بمحاربة أيّ قوى من الممكن أن تشكّل تهديدًا لوجودها، كذلك يدخل ضمن هذا المضمار عرقلة مشاريعها. ومن هذا الباب، يمكن الكشف عن تأثير الفتوى المباركة في الجيوستراتيجية، إذا ساهمَت في ولادة كيان عَقَديّ «الحشد الشعبيّ»، والذي شكّل، من يوم تأسيسه وإلى الآن، حائطَ صدٍّ بوجه المشاريع الصهيو-أميركيّة، والتي لم تكن داعش آخرها بكلّ تأكيد، وقد حاولت أمريكا، ولا

1 عبّاس حمزة الشمري، الأبعاد الجيوبوليتيكيّة للتداخل الإثنيّ بين العراق ودول الجوار، ص 24.

تزال، تقويض هذه المؤسّسة، عبر الضغط السياسيّ، لكن دائمًا ما كانت تبوء بالفشل. يذهب باحثون إلى أنّ الشعبيّة الجماهيريّة للحشد الشعبيّ مثَّلَت عائقًا أمام هذا الضغط، وهذا ما تذهب إليها إحدى الدراسات، والتي جاء فيها: «أحد الأسباب الرئيسة لعدم قدرة [...] القادة على تحدّي مجموعات الحشد الشعبيّ، يعود إلى الشعبيّة الواسعة التي تحوزها في أوساط المجتمع العراقيّ»[1]. لذلك، كان من الطبيعيّ أن تمتدّ آثار الفتوى في البُعدَين الإقليميّ والدوليّ. ويمكن لنا أن نلخّص هذه التأثيرات في النقاط الآتية:

1. من خلال الجيوستراتيجيّة، تنظر الدولة لآفاقها المستقبليّة في إطار جغرافيّ غير ثابت، بل متحرّك، وهذه النقطة من الأمور المهمّة في الفصل بين مفهومَي الجيوستراتيجية والجغرافية السياسيّة. وتعلّق تأثير الفتوى في هذا الجانب بتوفير شبه الحصانة للدولة من أيّ تهديد وجوديّ من الممكن أن يطرأ عليها مستقبلاً، خصوصًا أنّ مصدر هذه التهديدات غالبًا ما يكون من قوى دوليّة أو إقليميّة، وذلك عبر استعدادها الدائم وجاهزيّتها للتعبئة والتحشيد الجماهيريّ، الذي يوفّر الحماية والدعم المضاعَف لجهود مؤسّسات الدولة الأمنيّة.

1 ريناد منصور، وعبد الجبّار فالح، الحشد الشعبيّ ومستقبل العراق، ص 18. (بتصرّف طفيف)

2. أنتجَت ولادة "الحشد الشـعبيّ" ردودَ فعلٍ إقليميّة ودوليّة مضادّة؛ نتيجة المعرفة المسـبقة بما يمكن أن توفّره وجود هكذا مؤسّسـة، خصوصًا أنّ الطابع الشعبيّ والعَقَديّ طغى عليها؛ ما يعني تهديد المصالح الجيوستراتيجيّة في العراق لكثيرٍ من هذه الدول، وفي مقدّمتهـا دول الجوار؛ تركيا والخليج، وهذا ما يفسّر التهم التي أُطلِقَت من قِبَل المؤسّسات الإعلاميّة لهذه الدول، ضدّ هذه المؤسّسة.

3. تُعَدّ التنظيمات ذات الثقل الشـعبيّ والمؤسّسة من المصلحة الوطنيّة والدينيّة في البلدان، من الأمور العدائيّة في الإستراتيجيّة الأميركيّة[1]. لذلك، عَدَّت الحشدَ الشعبيّ عدوًّا ومهدِّدًا لمصالحها في العراق. فالأساس الدينيّ والوطنيّ الذي قام عليه الحشد الشعبيّ، يعارض ويضادّ -فطريًّا- التعامل مع هكذا قوى متسلّطة تريد السيطرة على البلد، ومسخ هويّته الدينيّة والاجتماعيّة.

4. يَعدُّ الكيانُ المؤقّت التنظيـماتِ العَقَديّة من الأمور المهدِّدة لوجوده؛ نتيجـة تجاربه السـابقة مع هكذا تنظيـمات، مثل حزب اللـه، الذي أذلَّه في عام 2006، ولايزال، مضافًا إلى عـدم إمكانيّة احتوائها والتطبيع معها؛ نتيجة الأسـاس العَقَديّ، مثلما أسـلفنا؛ ومن ثمّ يصعب مواجهتهـا من الناحيتَين: الأمنيّة والعسـكريّة، نتيجة عدم اكتراثها بالفوارق، سـواء بالتسليح أو سواه، كذلـك ميل ميزان الصلابة النفسـيّة لصالـح هكذا تنظيمات؛ بسـبب البُعد

1 - محمّد كشيش خشان، مصدر سابق، ص 497.

الروحيّ الذي يتشـكّل في داخل الفرد، ومن ثمّ التنظيم ككلّ، وهو الأهمّ في الحروب الحديثة.

5. وجود بعض الفصائل المنضوية داخل الحشـد الشـعبيّ، ولها قابليّة التحرّك خلف الحدود، يساهم في تعزيز موقف الدولة الجيوستراتيجيّ، إذا ما تعامَلَت مع هذه الحقيقة، بعيدًا عن الضغوط الأميركيّة والإقليميّة، خصوصًا أنّ جوهر الجيوستراتيجيّة مرتبط بالدولة بوصفها كائن حيّ، قابل للنموّ، ولو خارج حدودها الحاليّة. ومع تحفُّظ النظام السياسيّ الحاليّ للعراق من هكذا خطوات، نرى -على أقلّ تقدير- محاولة الاسـتفادة من هذا الأمر في سـياق حفظ الأمن، والذي حصل فعلاً مسـبقًا، عبر قتال هذه الفصائل في سورية، ضدّ التنظيمات الإرهابيّة والمتطرّفة، التي هدَّدت الأمن القوميّ العراقيّ، بل وامتدَّت إلى داخل البلد.

6. سـاهمَت فتوى الجهاد الكفائيّ في تقويض الإستراتيجيّات الصهيو-أميركيّة، مثل (الديانة الإبراهيميّة، وصفقة القرن، والتطبيع مع الكيان المؤقّت، وتطبيع الجامعات مع الشذوذ الجنسيّ، و...)، عبر التنظيم والتعضيد للردود الشـعبيّة، أو ما يُصطَلَح عليه بـِ الجيوبوليتيك النقديّة أو الشعبيّة [1]. ويجري

1 - لمعرفة المزيد عن مفهوم الجيوبوليتيك الشعبيّة أو النقديّة، انظر: محمّد كشيش خشان، الحشد الشعبيّ - دراسة في الجيوبوليتك.

ذلك عبر توجيه الفهم الشعبيّ للأحداث ضمن إطار سياسيّ، وجعلها مؤثّرة وفاعلة في سياسة الدولة وإستراتيجيّاتها؛ ما جعل الرفض الشعبيّ لمثل هكذا محاولات حاسمًا.

خاتمة

ختامًا، فإنّنا نلاحظ أنّ استقرار الدولة يحتاج إلى المرجعيّة الدينيّة العليا، لا العكس. وهذه الحاجة ليست من باب تبعيّة أحدهما للآخر؛ فالوجود التأسيسيّ والمستقلّ للمرجعيّة حقيقةٌ قائمة بذاتها، ومستمَدّة من البُعدين العَقَديّ والتاريخيّ. لقد مثّلَت المرجعيّة الدينيّة العليا للدولة العراقيّة، بركنَيها: الشعبيّ والسلطويّ، ثروة روحيّة كبرى، سواء عبر دورها في حالات الطوارئ الأمنيّة والسياسيّة، أو عبر دورها التقليديّ في ترشيد المسارات السياسيّة وتصويبها في اللحظات الحرجة. من هنا، نرى ضرورة التفاف الشباب العراقيّ الواعي حول المرجعيّة؛ لحمايتها من الحملات الإعلاميّة المعادية التي تتعرّض لها، والتي تستهدف فصلها عن القواعد الشعبيّة، ومن ثمّ إضعاف دورها، والذي ينعكس -تلقائيًّا- على الدولة العراقيّة ككلّ، وبالأخصّ جغرافيّتها السياسيّة.

إنّ الحفاظ على مكتسبات فتوى الجهاد الكفائيّ، يُعَدّ خطوة كبرى في تنمية قوّة الدولة العراقيّة، بما يضمن الأثر الإيجابيّ على الجغرافية

السياسـيّة للبلد. ومن أهمّ ركائز هذا الأمر، الحفاظ على استقلاليّة «الحشد الشـعبيّ» كمؤسّسـة عَقَديّة، وكإضافة نوعيّة للمنظومة الأمنيّة. ويجب على النظام السـياسيّ أن يعي الأهمّيّة الجيوستراتيجيّة لبعض الفصائل، بعيدًا عن الضغوطات الأميركيّة والإقليميّة، وأن يتعامل وفق المصلحة الوطنيّة والدينيّة، والمختلفة -بكلّ تأكيد- عن المنظور الغربيّ لها.

لائحة المصادر والمراجع

العربيّة

1. هـارون، عليّ أحمد، أُسُـس الجغرافية السياسـيّة، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ط1، 1998م.

2. الهيتي، صبري فارس، الجغرافية السياسـيّة مع تطبيقات جيوبولتيكية اسـتشرافيّة عن الوطن العربيّ، دار الكتاب الجديـد المتّحدة، بيروت، ط1، 2000م.

3. سـعودي، محمّد عبد الغنيّ، الجغرافية السياسـيّة المعاصرة دراسـة الجغرافية والعلاقات السياسـيّة الدوليّة، مكتبة الأنجلـو المصريّة، القاهرة، ط1، 2010م.

4. ألكسندر دوفاي، الجغرافيا السياسية جيوبوليتك، ترجمة حسين حيدر، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، ط1، 2007م.

5. الشـمري، عبّاس حمزة، الأبعاد الجيوبوليتيكيـة للتداخل الإثنيّ بين العراق ودول الجوار، مؤسّسة دار الصادق الثقافيّة، بابل، ط1، 2022.

6. بندقجي، حسـين حمزة، الدولة: دراسـة تحليليّة في مبادئ الجغرافية السياسيّة، ح.ح. بندقجي، جدّة، ط3، 1981م.

7. كارولين مرجي صايغ، المرجعيّة الدينيّة: الموقف الوطنيّ في العراق بعـد 2003، ت: نصر محمّـد علي، مركـز الرافدين للحـوار، بيروت، ط1، 2020م.

8. منصور، ريناد وعبد الجبّار، فالح، الحشـد الشعبيّ ومستقبل العراق، مركز كارنيغي للشرق الأوسط،2017م:

https://carnegie-mec.org/201728/04//ar-pub-68812

9. حسين، حيدر علي، الحشد الشعبيّ رؤية في الدور المستقبليّ، مجلّة المستنصريّة للدراسات العربيّة والدوليّة، مركز المستنصريّة للدراسات العربيّة والدوليّة، العراق، مجلّد 15، العدد63، 2018:

https://mjais.uomustansiriyah.edu.iq/index.php/mjais/article/view/181

10. عطيوي، فارس فضيل، فتوى السـيّد السيسـتانيّ (دام ظلّه) بالجهاد

الكفائيّ وأثرهـا في درء الفتنة الطائفيّة والحفاظ على الوحدة الوطنيّة، ضمن أعمال المؤتمر العلميّ الدوليّ الثامن عشر "المرجعيّة وأثرها في بناء الإنسان" (النجف الأشرف 12-13 آذار 2019 عن مركز دراسات الكوفة)، مركز دراسات الكوفة، النجف الأشرف، لا ط، 2019:

https://doi.org/10.36322/jksc.v2i61.950

11. خشّان، محمّد، الحشد الشعبيّ-دراسة في الجيوبوليتك، مجلّة مركز دراسـات الكوفة، مركز دراسـات الكوفة، النجف الأشرف، مجلّد 1، العدد 62، 2021م:

https://doi.org/10.36322/jksc.v1i62.827

12. جاسـم، أحمد فاضل وعامر هاشم عوّاد، الدور الأميركيّ وتأثيره في معادلة الأمن الوطنيّ في مرحلة ما بعد الانسحاب العسكريّ، مجلّة دراسات دوليّة، مركز الدراسات الإستراتيجيّة والدوليّة في جامعة بغداد،العراق، العدد 52، 2012:

https://jcis.uobaghdad.edu.iq/index.php/politics/article/view/270

المواقع الإلكترونيّة

1. عماد الصادق، السيستانيّ المرجعيّة التي أنقذَت شعبًا، (2023-8-3)،

تاريخ الاطّلاع (24-4-2024)، على الرابط الآتي:
https://www.csrgulf.com/202303/08//%D8%B1%D985%%D8%B2%D98%A%D8%A9-%D8%A7%D984%%D8%B3%D98%A%D8%B3%D8%AA%D8%A7%D986%%D98%A/

2. موقع مكتب سـماحة السيّد السيستانيّ، اسـتفتاء حول مشروع كتابة الدستور العراقيّ، (25-6-2003)، تاريخ الاطّلاع (25-4-2024)، على الرابط الآتي: استفتاء حول مشروع كتابة الدستور العراقيّ - الأرشيف - موقع مكتب سـماحة المرجع الدينيّ الأعلى السيّد عليّ الحسـينيّ السيستانيّ (دام ظلّه) (sistani.org).

3. موقع مكتب سماحة السيّد السيستانيّ، خطبة إعلان الجهاد الكفائيّ، (13-6-2014)، تاريخ الاطّلاع (2-5-2024)، على الرابط الآتي:
https://www.sistani.org/arabic/archive/24918/

الإنجليزيّة

1. John Negroponte, Latin America's Real "Mr. Danger", Arises in a New Avatar, COHA, (2007_1_11) Date of visit (202423-4-): https://coha.org/john-negroponte-latin-america%E299%80%s-real-%E29%80%Cmr-danger%E29%80%D-arises-in-a-new-avatar/

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com

المشرف العام: الشيخ جلال الدين علي الصغير
مدير المركز د. محمد مرتضى
009613821638